غزوة بريطانيا

تأليف شاهد تاريخي

نفيل تشمبرلين

١٨٦٩ — ١٩٤٠

لحسن العملي

في قصر الدنكلبري

للسر مايلز لامسون السفير البريطاني

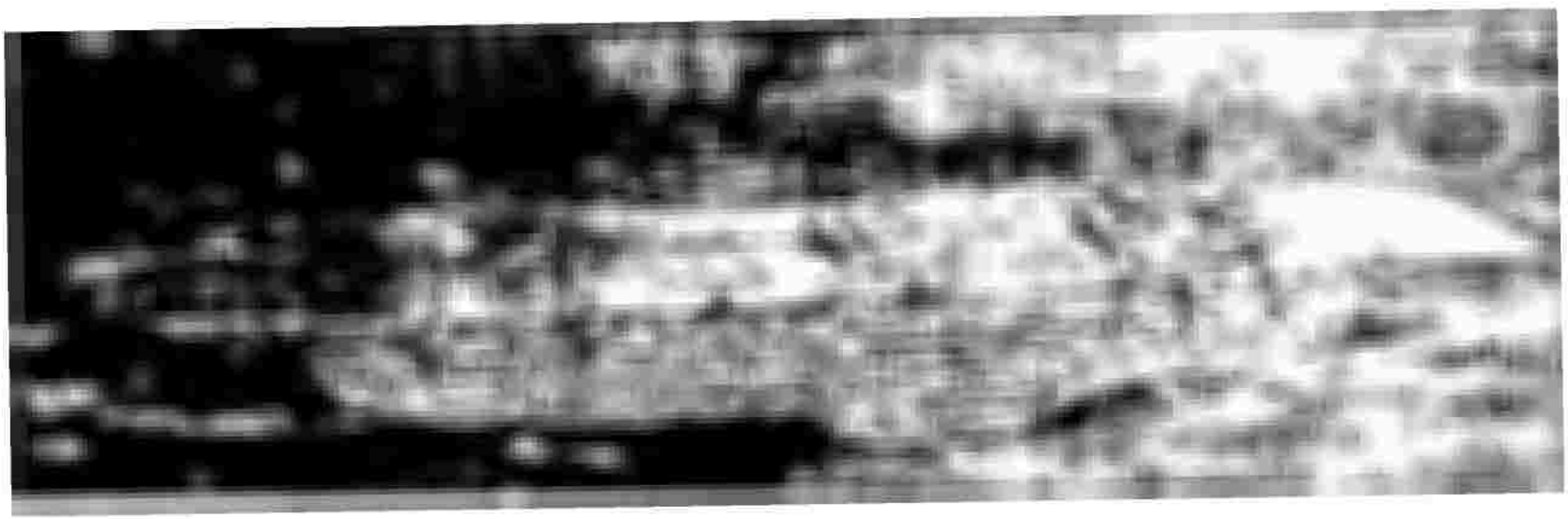

مقطع لحاملة الطائرات « آرك رويال » يبين سطحها وطبقاتها المختلفة التي تحت السطح حيث تحفظ الطائرات

غزوة بريطانيا

تعريب شاهر [illegible]

— ١ —

نحن في سنة ١٥٨٨ ، وكان الأسبانيون قد هزموا [illegible] في البحر المتوسط في معركة ليبانتو البحرية المشهورة سنة ١٥٧١ . وكان العلم الأسباني في تلك السنة يخفق فوق أسبانيا والبرتوغال ومملكتي نابولي وصقلية ودوقية ميلانو ومملكة هولندا في أوربا ، وفوق تونس وطرابلس وجزائر الرأس الأخضر وجزائر كناري في أفريقية وفوق جزائر الفيبين وغيرها في بحار الشرق الأقصى . وكانت بلدان أميركية كثيرة في أميركا المتوسطة وأميركا الجنوبية تعترف برعاية أسبانيا العالية في السياسة والحرب والثقافة . وكان ذهب المكسيك وبيرو وكنوز الهند تملأ خزائنها فتمكنها من الاحتفاظ بجيش كبير قوي بقوده أمهر قواد عصره فوق البر . وكان في النمسا وايطاليا وبولونيا حركة معاكسة للاصلاح الديني ، المعروف بالبروتستنتي ، وكانت أسبانيا زعيمة الدول الكاثوليكية حينئذٍ ، فكان أنصار تلك الحركة الدينية المعاكسة ، أصدقاء لها او أتباعاً لحكم العقيدة . وكانت هولندا التي قاومت الاحتلال الأسباني مقاومة عنيفة ، قد أخذت عزيمتها تضعف في وجه الجيش الأسباني المحترف وقدرة قائده دوق بارما وبراعته

في تلك السنة لم يكن يقف بين أسبانيا والسيادة البحرية غير انكلترا — انكلترا الملكة اليزابث ، انكلترا شكسبير ويكون ودرايك

وانكلترا في تلك السنة لم تكن الدولة التي يخشى بأسها الخطر صولتها . فانكلترا كانت لا تزال تنازع على التاج بين أنصار ملكة اسكتلندا وملكة انكلترا . وأرلندا كانت مضطربة مشرفة على التمرد او هي متمردة حقيقة في بعض مناطقها . ولم يكن لها [illegible] تعتمد منها القوة والمون . ولم يكن لها سيادة بحرية تعترف بها . فماذا لا تقهر انكلترا وبدك هذا العامل القائم بين الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا والسيادة العالمية ؟

وكان عند الملك فيليب الثاني ما يحمله على الاعتقاد من جهة أسطوله البحري . فقد بذل جهداً عسكرياً كبيراً لتزويده جميع الموارد العسكرية والمالية التي رهن يده ، يمكنه من اخضاع تلك الجزيرة . ورسخ في ذهنه سفائن أسطوله البحري وزهرة مشاته تكوّن قوة لا تقهر . فما عيت بعاهل على أمره . وسقطت اليزابث ، إبنة هنري الثامن الذي فصل انكلترا عن الكنيسة الكاثوليكية . ثم تملك فيليب الثاني ، بسيادة دينية عامة ، في ظل سيادة دينية عالمية ، هو زعيمها الديني

تلك كانت البواعث الأصلية . وهي لا تختلف في جوهرها عن البواعث التي حملت نابليون

مستهل القرن التاسع عشر ، وتحمل هتلر الآن ، على الرغبة في إخضاع بريطانيا . وان اختلفت الغوائب التي تفرعت فيها هذه النزعات وتباينت أساليب الكفاح . فالسيادة العالمية كانت الهدف البعيد في الحالات الثلاث ، والانكليز حائل دون تحقيقها

ومضت مئة وثلاثون عاماً قام في أثنائها نابليون على قدم وساق ، لاعداد حملة تغزو تلك الجزيرة العنيدة . وكان هذا الشعب قائماً في وقت واحد في اسبانيا والبرتغال ، قيامه في جميع ثغور السواحل الشمالية الغربية الخاضعة لاسبانيا ، الممتدة من سواحل شبه جزيرة جتلند الى نهاية ما يعرف الآن بسواحل البلجيك . وأذيع أن هذه الحملة تعد لتزو في آسيا رغبةً في التخفي والتضليل ، ولكن الانكليز لم يخدعوا عما ذوي وذاع

وكان دوق بارما في هولندا يبذل غاية المستطاع . كما فعل بولون بعده ، وكما يفعل الفوهرر رأعوانه الآن ، لاعداد اساطيل من السفن لنقل جيش كبير مدرَّب من مرافىء السواحل الهولندية عبر مضيق الماء الذي يفصل تلك السواحل عن سواحل انكلترا . ومن أغرب ما يستوقف النظر ان الأسماء التي يتردد ذكرها في هذه الأيام — اوستند ودنكيرك وبولوني وكاليه وغيرها — هي هي التي تردد ذكرها في أعداد الحملتين السابقتين

ولم يكن للانكليز حينئذٍ أعوان وحلفاء الا محالفة مضطربة مع ملك فرنسي متردد . ولكن بحارة هولندا كانوا في جانب الانكليز . امس واليوم متفقان في ذلك . وكان الاسطول البريطاني يشتمل على ست وثمانين سفينة من جميع الأصناف . فلما لاح الخطر المقترب على الأفق ، عزّز هذا الاسطول بتسليح السفن التجارية — كما عزّز اسطولهم بها في بدء هذه الحرب — فبلغ الاسطول ١٩١ سفينة كان مجموع تفريغها الجميعاً ٣١٩٨٥ طناً . أي اقل من تفريغ باخرة كبيرة واحدة من بواخر يومنا هذا . وكان عدد رجاله ١٧٤٧٢ انضم اليهم نحو ستين سفينة صغيرة من سفن البحارة الهولنديين الذين حاربوا في جانب بريطانيا من ٣٥٢ سنة كما يحارب البحارة الهولنديين اليوم لانقاذ وطنهم من وطأة الطاغية . بيد ان هذا ان الارمادا الاسبانية وكانت تعرف بوصف الارمادا التي لا تقهر [illegible] كان تونها ١٣٠ سفينة مجموع تفريغها ٥٧٨٦٠ طناً وكان رجالها ٨٠٥ من البحارة و١٩٧ من الجنود ، ٢٨٨ من المجدفين وعددهم ٢٩٣٣٥

كانت سفن الاسبانيين أكبر وأعلى ، ومسلحة تسليحاً جيداً ، فكانت تصلح للاشتباك والالتحام بين السفن . كانت سفن الانكليز أصغر ولكن مدافعها أضخم وتحريكها أيسر ورجالها يعرفون البحر وتياراتها والرياح ومهابها معرفة جيدة من

وأقلعت الأرمادا الاسبانية من مصب نهر تاج في البرتغال في ٢٠ مايو سنة ١٥٨٨ . وعددها

الأول أن تبسط سيطرتها على بحر المانش ، وهدفها الثاني ، أن تتصل بعد ذلك بجيش دوق بارما في هولندا وما أعده من السفن في دنكيرك واوستند لنقل الحملة الغازية الى سواحل انكلترا

ليس بهمنا من باقي القصة ، أن نفصل أدوار المعركة التي دارت بين الأرمادا وبين الأسطول الانكليزي ولكن حسبنا ان نقول ان الأميرال البريطاني هورد — وكان دراييك البطل البحري المشهور أحد ضباطه الكبار — لم يكد يلمح السفن الاسبانية متجهة الى كاليه ودنكيرك ، متهادية في بحر المانش ، تدفعها ريح جنوبية غربية ، حتى هجم على مؤخرتها . ومع أن السفن الانكليزية كانت أصغر من السفن الاسبانية ، الا أن مدافعها كانت أضخم وأقوى وتحريكها أيسر وأسهل فاستعان الانكليز باتجاه الريح وحركة الماء ، وتولوا زمام ادارة المعركة من بدئها ، فكانوا يختارون المواقف التي تلائمهم لمواجهة سفن أعدائهم ، وأبوا أن يشتبكوا مع السفن الاسبانية ويلتحموا بها ، لتفوق الاسبانيين في عدد الرجال ، ولأن جدران السفن الاسبانية كانت أعلى من جدران السفن الانكليزية ، فالصعود اليها أصعب على الانكليز ، والنزول الى السفن الانكليزية أيسر على الاسبانيين . ولذلك فضل الانكليز مهاجمة السفن الاسبانية مفردة أو في فصائل صغيرة ففكوا بها فكاً ذريعاً وأسروا سفينة الأميرال بعد ما عطلوها

ودامت هذه المرحلة من المعركة سبعة أيام ، لجأت بعدها سفن الأرمادا الى كاليه ، وكان جانب منها مهشماً ولكنها لم تكن قد قهرت بعد . وكان الهولنديون في بلادهم قد شغلوا دوق بارما وجيوشه فلم تقم الحملة المعدة للغزو من مرافئها

وجدد الانكليز الهجوم على السفن اللاجئة الى كاليه ، فوجهوا اليها ثماني سفن نارية ، فاضطرب الأسبانيون ورفعوا المراسي وخرجوا من المرفأ وتجمعوا بعد جهد أمام جرافلين على الساحل فأمر الأميرال البريطاني أسطوله كله بالهجوم ، فأغرق من السفن الأسبانية ما أغرق وقسر الباقي على الخروج الى البحر ، فخرج واجتاز دنكيرك بغير أن يلبث عندها . وكانت دنكيرك آخر موقع متفق عليه للاجتماع بالحملة التي أعدها دوق بارما . ومضت السفن الأسبانية شمالاً في البحر الشمالي ، والانكليز يتعقبونها ، فلما بلغت سواحل اسكتلندا عطفت غرباً فدمرتها العواصف على تلك السواحل الصخرية الجافية

— ٢ —

هذا هو المشهد التاريخي الأول . أما المشهد الثاني فهو مشهد الحملة النابوليونية

كان في سنة ١٨٠٥ وفي شهر أغسطس . ونابوليون في معسكره في بولون المطلة على بحر المانش ، يروح ويجيء برماً يلوح عليه أن صبره أخذ ينفد ، ثم يلتفت حيناً بعد حين الى وزير بحريته الأميرال دكريه ويقول له أين فيلنوف ؟

كان نابوليون قد أنشأ الأمبراطورية الأولى ، وضم تحت رديه فيما فرنسا القديمة وفرنسا

الجديدة ، أي أنهُ جمع بين المبادىء الثورية الجديدة ، والمبادىء الملكية القديمة ، وكان هناك ارتياحٌ عام ، لأن الدلائل كانت تدل على أن الرخاء عاد يعود الى بلاد فرنسة بعد الثورة وأضعفها الحروب ، بعدما أنشئت فيها حكومة مستقرة ، وستتبعُ فيها انظام عام

ولكن نابوليون كان يدرك أكثر مما يدرك الشعب ، ان الأمر لا يستتب للامبراطورية ، وان النظام لا يستقر في البلدان التي فتحها وأخضعها بحد السيف ، إلاَّ اذا قهر قوة بريطانيا ، لم ينس ذلك وهو مكبٌّ على الاصلاح الداخلي ، ولذلك كان فكره أبداً متجهاً شطر البحر ، على سواحل فرنسا الشمالية . وكان يعلم أنهُ لا يستطيع ان يقهر بريطانيا الا اذا ناجزها القتال في البحر حيث سر قوتها . ولذلك قال قوله المشهور متمنياً أن يباح لهُ مضيق دوفر وبحر المانش مدى أربع وعشرين ساعة فقط

كانت الدول الاوربية التي لم يخضعها نابوليون حلفاً ثالثاً ضده . وكان مقتنعاً بأنهُ يستطيع أن يهزم جيش هذا الحلف . ولكن انتصاره عليه لا يغنيه . أكثر مما أغنته إنتصاراته السابقة ما دام الأسطول البريطاني سليماً ، يشدد عليه الحصار ، ولا يستطيع أن يفك الحصر من البر. والغريب ان كلاً من نابوليون وهنري أعلنا حصر بريطانيا من بر القارة وأذاعا إعلانهما من مدينة واحدة هي برلين . وكان مصير الأول الى الحبوط . وكذلك سيكون مصير الثاني لأن البحر لا يحصر من البر. ولذلك بنى نابوليون باعداد أسطول بحري جديد قوي ، وكذلك باعداد حملة كبيرة لغزو بريطانيا . كانت الحملة التي أعدَّها تشمل ١٣٢ ألفاً من خيرة محاربيه وأشدهم مراساً منهم ١٠٠ ألف من المشاة و١٢ ألفاً من الفرسان و١٣ ألفاً من المدفعية . وكانت السفن المعدة لنقل هذه الحملة ومعداتها متأهبة وقاعدتهم بولون وثلاثة ثغور أخرى مجاورة

وقد بقي الا أن يتجه الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال فيلنوف الى برست لمواجهة الأسطول البريطاني بقيادة نلسن أو من يليه من أمراء الأسطول فيشغل الأسطول البريطاني مدى أربع وعشرين ساعة على الأقل تجتاز في خلالها الحملة البونبرتية مياه القناة بين سواحل فرنسا وسواحل بريطانيا . وهناك يصبح القتال من النوع الذي تتوق نابوليون اليه

ولكن فيلنوف لم يجيء الى برست بل ذهب الى قادش في جنوب اسبانيا لأن الأميرال لم يكن واثقاً بقدرة سفنه على الانتظام بالأسطول البريطاني الذي كان في برست وحده ولا بقوة الأسطول الاسباني الذي كان به . وهو لا يريد أن يعرّض الأسطول الذي بقيادته هذه الفرصة الذهبية للانتظام . وكأنه خيّب ظن نابوليون . فنابوليون لم يكن يطلب منهُ نصراً بحرياً ، وان كان يطلب منه أن يشغل الأسطول البريطاني . ولو مضى في هذه المعركة لأنعم الله عليه وعلى نابوليون في بولون بنعمة بين رجاء والاخفاق . حتى قارب شهر سبتمبر من

الانتهاء ، وبدأ جو الخريف برياحه الهوج تضرب سطح الماء فتجعل اتقان الحملة عملاً محفوفاً بالخطر . وذرّ قرن الثورة عليه في بعض بلدان أوربا فاستدبر الغاش وفي قلبه حسرة ، وواجه خصومه على ر القارة فأحرز انتصارات عسكرية كبيرة ولكنها لم تفته كما كان يعلم . وكذلك قدّر لحملة نبوليون على بريطانيا ان لا تقوم . بل قدّر ان يكون الفصل التالي من النزاع امام الطرف الأغر حيث فاز نلسن بنصر حاسم على الاساطيل الفرنسية والاسبانية . فكان ذلك بدء النهاية ، مع ان النهاية لم تأت الاّ في واترلو بعد نحو عشر سنوات

— ٣ —

أما المشهد الثالث فني البقعة نفسها على سواحل مضيق دوفر وبحر المانش ، ولكن في سنة ١٩٤٠ بدلاً من ١٥٨٨ أو ١٨٠٥ . لقد أحرز هتلر كما أحرز نبوليون انتصارات عسكرية كبيرة حاسمة على البر الاوروبي . ولكنهُ مدرك كما ادرك فيليب الثاني ونبوليون من قبل ، ان دون السيادة العالمية ، واستقرار النظام في البلدان التي أخضعها ، تلك الجزائر التي يقطنها شعب باسل لا يعرف الجزع يسود البحار وهو في طريقه الى سيادة الجو . وها هو ذا المارشال جورنج واقف حيث وقف دوق بارما ونبوليون من قبل . السفن متجمعة في الثغور على طول الساحل من هيبورج الى الحدود الاسبانية . وتضاف اليها ثغور نروج . ووراء هذا الحشد من السفن عشرات الالوف من الجند ينتظرون الامر بالسير

ولكن هذه الحملة ، المنظمة بدقة واحكام ، بين امرين على ما نعتقد ، إما ان يكون مصيرها مصير الارمادا الاسبانية ، واما ان لا تقوم مطلقاً كحملة نبوليون . ذلك بأن الأسطول البريطاني المتفوق واقف لها بالمرصاد . وقاذفات السلاح الجوي البريطاني ، توالياً قذفاً طول نهار ، تغرق السفن وتدمر الارصفة وتشعل النيران في مخازن العتاد ومستودعات البترول . وجميع الخبراء الحربيين مجمعون ، من روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، على أن لا أمل لهذه الحملة في النجاح الاّ اذا انتزع السلاح الجوي الالماني لواء سيادة الجو من سلاح الطيران البريطاني . فاذا لم يفعل فالحملة مقضي عليها بالهبوط . وليس في المعركة الجوية الدائرة الآن دليل واحد على ان فوز الالمانيين بهذه السيادة الجوية قريب او محتمل ، فخسارتهم في الطائرات ورجال الطيران المدربين فادحة ، وضربهم المدن والمكتشفات والمخازن بغير تميز لا يلحقهم مزية حربية تذكر . فالارهاب لا يكسبهم هذه المعركة . وقد بدأ الآن — وهذا الفصل من حديث أذيع من محطة الاذاعة للحكومة المصرية في ١٩ سبتمبر — جو الخريف المضطرب يعلن عن تلك النقاع ، ورياح هوج وبحر عاتية متلاطمة الأمواج وغيم متلبد وضباب كثيف . فاذا غامروا فمصير الارمادا أمامهم ، واذا امتنعوا فقد فاتت الفرصة والمرجح الذي في مرتبة اليقين انها لا تعود